أبو اسماعيل

عبد المنعم شلبى

السيد ابو اسماعيل رجل ولا كل الرجال ، طيب وظريف ، كل من فى قريتنا يحبونه ويعطفون عليه ، لطيبة قلبه ، وخفة دمه، وميله الغريزى للنكتة ، لايعترف بهموم الدنيا وان تكدست على راسه ، أو هو يعترف بها ولكنه لايعيرها كبير اهتمام ، فقير عريق فى الفقر ، ومع ذلك يشكر الحميد المجيد على ان رزقه ساعدا قويا ، وبنية صلبة تربت فى احضان الريف بين القنوات الجارية والزرع الاخضر ، يراه الناس فى الفجر ذاهبا الى المسجد ، يتوضأ ويصلى ويختم الصلاة بادعية حلوة يحفظها عن ظهر قلب ،ويكررها عقب كل صلاة ويشعر بحلاوتها فى كل مرة ، فاذا اشرقت الشمس رآه الناس مفروسا فى قناة جافة يحفرها أو ينظف مجراها من الحشائش التى تعوق جريان الماء ...

فاذا انتهى من عمله هذا بحث عن شغل آخر .. يقدم الأعلاف للمواشى .. أو يسوى ارضا محروثة ، وكل عمل بأجره المقدر المعروف ، رجلاه لاتعرفان لبس النعال . ولهذا تراهما مشققتين كالأرض العطشى ... وجهه أسمر عميق السمرة ، عيناه سوداوان واسعتان تتهدل عليهما أهداب مجهدة ، مهارته

فى العمل تجعل الفلاحين يفضلونه على سواه .. ويوكلون اليه القيام بأعمالهم ولايناقشونه فى الأجر لعلمهم انه لايشتط ولايغالى فاذا انهى عمله اليومى قبض أجره وذهب الى دكان المعلم عباس شاكرا نعمة الله ، وهناك تستقبله زوجته ام اسماعيل هاشة باشة ، وبعد أن تعد الطعام يجلسان للاكل وحدهما ، لأن ابنهما اسماعيل قد مات منذ زمن ولم يرزقهما الله بغيره ، وكانتزوجته تتذكر ابنها كلما جلسا الى الطعام فتبكى وتهجر الاكل ، وحينئذ يقول لها زوجها : « ياشيخة .. الدنيا فانية .. ولا دائم الا وجه الباقى .. بكره تخلفى غيره » !

وليس معنى هذا انه لم يكن حزينا على ولده ! ولكنه كان قادرا على كتمان الحزن وكان فى استطاعته أن يسرى عن زوجته ويضحك فى وجهها ، ثم يقول لها :

« الولد منى ، وانا موجود ، وان شاء الله تخلفى غيره ، بدلا من الولد عشرة » !.. وحينئذ كانت تبتسم فى حياء وتجيبه: « انت الآخر كبرت وشاب شعرك ، ولم يعد فيك حيل » !.. فيفهم من ذلك انها تستثيره فيقول لها : « اذا كان شعرى قد شاب فان قلبى لم يشب ، وسوف ترين الليلة » !.. ثم يغمزها فى صدرها ويضحكان معا حتى يمسح الضحك بقايا الحزن من قلبيهما .

وبعد العشاء كان يتوجه الى المقهى ، وهناك يجتمع رجال القرية الأعيان ومتوسطو الحال ومن دونهم ، يشربون الشاى والمعسل ، ويستمعون الى اغانى عبد المطلب وملاحم السيد حواس ومواويل محمد طه من الراديو ، ويضحكون على كل نكتة يقولها ابواسماعيل وبعد السمر يعودون الى بيوتهم ليكملوا بقية الليل مع زوجاتهم حتى يشرق اليوم الجديد ، فينتشرون فى حقولهم ، ومرة اخرى ينغرس السيد ابو اسماعيل فى القناة يحفرها أو يضرب الارض بالفاس يقلب وجهها للشمس ، او يسوى أرضا محروثة أو يروى زرعا عطشان ، ولايسلم من نكاته احد من العابرين حتى أعيان البلد ، والايام تمضى تلو الليالى هادئة مشرقة لايعكرها سوى بعض الحرائق التى تشب فى الحقول ايام الحصاد ، أو بعض المعارك التى تنشب عندما تشح المياه وتشح معها النفوس وتستولى طبيعته ونسى الناس احقادهم وصفت قلوبهم وطالت سهراتهم فى المقهى وعلى المصاطب حيث يرتفع شأن ابو اسماعيل ، صاحب النكتة الحلوة والروح الطيبة ، وفى مثل هذه الايام لايكون هناك حفر ولا حرث ولا بذر ولكن هناك انتظار للحصاد وتشوق الى نتيجة العرق والجهد ، ولهذا كان السيد ابو اسماعيل لايجد

نقودا فى تلك الظروف الضيقة التى يقل فيها الشغل ، وقداضطر أن يأخذ الارز والشاى والدخان من دكان المعلم عباس أبو الحمد تحت الحساب ... وكان المعلم لايمنع عنه شيئا فى بداية الأمر ، ولكن الحساب تكاثر ، وبلغت قيمته ثلاثة جنيهات ونصف ، والسيد ابو اسماعيل لايسدد ، والمعلم عباس فرغ صبره ، ولم يعد فى استطاعته أن يمد السيد بأكثر من هذا ...

فطالبه بدفع المبلغ ولم يجد ابو اسماعيل مايدفعه ، فامهله مرة وثانية وثالثة حتى يأتى الفرج من عند الله ، ولكن الفرج لم يأت بالقدر المطلوب ، وفكر ابو اسماعيل : يبدو أن الفرج قد اغلقت ابوابه ، الفلاحون يطلبونه عندما يكون لديهم عمل يريدون انجازه !، وفيما عدا ذلك لايريدونه لغير الضحك والتسلية ، يرونه كثيرا أمام دكان المعلم عباس ، ويسمعون الحاح الرجل فى المطالبة بدينه ، وكأنهم لايرون ولايسمعون !، لو كانت له قطعة من الارض أو حتى بعض الماشية ؟ لهان الأمر ، ولكنه لايملك غير ساعده وعرقه ، وكان فى استطاعته أن يضحك على الدنيا بنكتة لو لم يكن مدينا لأحد ، ولكن المعلم عباس رجل تاجر . المليم عنده يمثل قيمة مادية كبيرة ، فما بالك بثلاثة جنيهات ونصف ؟..

وذات يوم نشبت معركة حامية بين المعلم عباس والسيد ابو اسماعيل .. كانت معركة جادة كل الجد من جانب وهازلة ساخرة من جانب آخر ، وقتها اقسم المعلم عباس يمينا بالطلاق ليشتكين ابو اسماعيل فى المحكمة ويحجز عليه ، وحينئذ قال أبو اسماعيل فى بساطة متناهية :

ـ مادامت الحكاية وصلت الى الشكوى والحجز فكمل الحسبة وهات باكوشاى وربع سكر وباكودخان لأقدم لك التحية عندما تأتى مع المحضر !!..

ولم يكن من الحاضرين الا أن يضحكوا ملء أشداقهم !، واغتاظ المعلم عباس اكثر من ذى قبل ، وانصرف ابو اسماعيل الى بيته وهو يفكر بجد فى دفع ماعليه من دين ، ولكن تفكيره الجاد لم يصل به الى نتيجة حاسمة ، وزاد بؤسه وشقاءه انه لم يكن يستطيع أن ينكت مع نفسه ! ، كأنه فى استطاعته أن يضحك ويضحك الآخرين اذا التقى بهم ، ولكن اذا خلا بنفسه وصار معها وجها لوجه لم يستطع أن ينكت معها ! ويثقل عليه الهم لدرجة انه كان يشكر الله الذى اخذ ابنه واراحه من عناء البحث عن الطعام !.. اذ من المؤكد أن ابنه لو قدر له أن يعيش لن يكون خيرا منه .

وفى طريق عودته وجد قطعة من الخبز ملقاة بجوار حائط.. فاخذها ، وبعد خطوات يسيرة راى كلبين يتعاركان .. احدهما ضعيف الى حد الهزال ، يعوى بحرقة من ضربات خصمه الضخم القوى ، فوقف بالقرب منهما ينفض قطعة الخبز بين يديه ، ثم وجد نفسه يلقى بها للكلب الكبير ويقول له : خذ .. خذ يامعلم عباس !.. وامتلأت نفسه بالسرور حينما انقض الكلب القوى على قطعة الخبز يلتهمها بينما فر الكلب الهزيل هاربا غير مصدق بالنجاة ...

وفى اليوم التالى .. دعاه الحاج على ابراهيم ليسوى كوما مرتفعا بالأرض ويجعله صالحا لزراعة القرع ، كانت الأرض جافة صلبة ولكنه لم يعبأ بذلك .

وفى اثناء عمله مر عليه احد الفلاحين وسأله عما يعمل ؟.. فقال له على الفور :

ـ سنزرع هنـا قرعا .. الواحـدة مثل راس الحاج على ابراهيم ..

ثم رفع الفأس وطوح بها فى الهواء ثم ضرب الأرض بقوة ، وحينئذ احس بألم حاد فى ظهره ، حسبه اول الأمر الما عارضـا مثل تلك الآلام الكثيرة التى حدثت له من قبل ، فذلك ظهره بيده ثم واصل العمل ، ولكنه بعد فترة وجيزة تبين انه من المستحيل عليه ان يواصل الضرب بالفأس ... فذهب الى زوجته متألمـا شاكيا ، وراحت ام اسماعيل تعالجه بحكمتها الساذجة ، فصنعت له لبخة من الردة الساخنة وربطتها باحكام حول وسطه المنهوك ولكن هذا العلاج لم يأت بنتيجة مثمرة بل ان المرض تسرب الى مفاصله كلها ، واصبح يسير محنى الظهر متوكئا على عصاه ، ومع ذلك كان فى استطاعته أن يسقى مواشى الفلاحين ويقـدم لهـا العلوفات ... وكان يحلو له فى بعض الأوقات ان يتحدث الى بقرة الحاج رضوان فى السر ، قال لها يوما : « حتى انت أيتهـا البقـرة تنكرين الجميل ! اطعمك واسقيك ، ومع ذلك ، تعطين لبنك لأناس لايقدمون لك شيئا ؟ .. » واخذ يمسح على رقبتها وينقى كتفيها من القراض ، وهى مستسلمة راضية بهذا العمل اللذيذ ، وفى هذه اللحظة اقبل الحاج رضـوان من الخلف .. وسأله :

ـ ماذا تفعل للبقرة يابو اسماعيل ؟ ..

فالتفت نحوه مشدوها كمن اخذته المفـاجأة ، ثم ابتسم واجاب :

ـ لاشيء .. كنت اعلمها بعض النصائح ، لأنها صارت شقية فى هذه الأيام .

ومر الحادث عاديا كما تمر نسمة الهواء ، وبينما كان السيد أبو اسماعيل سائرا ذات يوم فى ارض مشققة برجليه الحافيتين ، اعترضت زجاجة اسفل قدمه فدخلت فيها ، ومع انه انتزعها من رجله الا انها احدثت شقا طويلا عميقا ، وشرب الجرح من الماء ، وتغذى من التراب ، فتورمت قدمه وازداد المه ، وصار يعتمد على العصا اكثر من ذى قبل ، وزاد به الضعف ففارت عيناه ، وبرزت عروق رقبته بوضوح كحبال رفيعة تربط رأسه الاشيب بكتفيه الواهنتين ، ومع ذلك لم يكن يكف عن الضحك ، والقاء النكتة عندما يلتقى باهل البلد ، كان يضحك حتى من المرض نفسه ، ولم ينقطع عن الذهاب الى المقهى والجلوس بين السمار والاستماع الى الراديو واتحاف الحاضرين بما تجود به قريحته التى لم تكن تخونه قط ! ...

وفوجىء يوما بالمعلم عباس ومعه المحضر والفقير ، كان المحضر راكبا على حمار ابيض مقصوص الشعر ، وحينما نزل عنه اقتاده الفقير حتى ربطه خلف بيت ابو اسماعيل الذى لم يكن سوى كوخ من اللبن ذى بابين متقابلين ، ثم نادى الفقير باعلا صوته :

ـ يابو اسماعيل .. جالك الموت ياتارك الصلاة !..

وخرج أبو اسماعيل من بيته يجر نفسه بصعوبة ، ليرى هذا الموت الذى جاءه فى هذه اللحظة التى يشعر فيها بازدياد المرض وسطوته وآلامه ... وتمنى من كل قلبه ان يكون موتا حقيقيا ! ومن خلف الباب المواربة اطلت زوجته بعين ونصف متمتمة فى تحسر وكآبة ! ، ونظر ابو اسماعيل بامعان فى وجه المحضر ثم قال ساخرا :

ـ اهو انت الموت ؟ .. مرحبا ايها الموت ! .. تفضل شاى ياحضرة الموت ؟ ..

وتكلم المحضر بلهجة رسمية معلنا انه جاء بتكليف من المحكمة بناء على طلب المعلم عباس ابو الحمد للحجز على ممتلكات السيد أبو اسماعيل نظير مبلغ ثلاثة جنيهات ونصف والمصاريف ، ثم أردف بلهجة آمرة :

ـ ياابو اسماعيل .. اما ان تدفع واما ان نحجز ؟ ..

وبعد برهة استجمع فيها السيد أبو اسماعيل قواه ، تبسم عن اسنان متآكلة ثم قال :

ـ ولكن ياجناب المحضر ، انت جعلتنى من ذوى الأملاك ؟. وانا لاأملك شيئا ، غير عصاى هذه وزوجتى فى داخل الدار ، واسمح لى ان اسالك : لقد جئتنى على أنك الموت .. بشهادة الفقير ؟ فلماذا انقلبت الى محضر ؟!..

ولم يطق المعلم عباس صبرا .. فصرخ فى المحضر ...

ـ هذا رجل مكار .. محتال .. يضيع الفرصة بالضحك والسخرية ؟ ...

ولما كان المحضر صامتا يفكر فى مايجب ان يفعله فقد اجاب ابو اسماعيل :

ـ يامعلم عباس .. انا اتكلم بجد .. ليس عندى شىء .. وانت تعرف ذلك .. ولكن اذا كنت مصرا على موقفك فاحجز على مراتى ؟ ..

واختنق المعلم عباس بالغيظ بينما ضحك المحضر حتى اغرورقت عيناه ، وتعالت قهقهات الفلاحين الذين كانوا قد تجمعوا ليشهدوا عملية الحجز .. بينما صمت أبو اسماعيل وارتسم الجد فى عينيه لاول مرة ، وتجعدت عضلات وجهه الشاحب وبدا هرما كئيبا ، وهداه فكره فى هذه اللحظة الى ختام رائع لهذه الرواية ، فقد راى ان يحسم الموقف بنكتة جديدة ، فقال :

ـ مادمتم مصرين على الحجز فاصبروا حتى ابحث لكم عن شىء ؟ ..

ثم ادار لهم ظهره المقوس ودخل بيته ، ثم غاب عنهم لحظة، وعاد بنفس خطواته الوئيدة ، ودعا سيادة المحضر للدخول ..

ـ ترى ماذا فعلت ياابو اسماعيل ؟ ..

ـ لعله يحجز على الدولاب والسرير ؟ ..

ـ ربما كان لزوجته حلقان وغوايش ؟ ..

وفى الداخل كان المحضر منهمكا فى توقيع الحجز على حمار وجده فى ساحة الدار ..

كان همه ان يؤدى مهمته الرسمية ، فلما انهى واجبه خرج يفرك يديه ويطوى اوراقه فى سرور بالغ ، واحس المعلم عباس بارتياح عميق ! .. فقد ضمن نقوده وشفى غليله من السيد ابو اسماعيل ، ولم يبق امام المحضر الا ان يغادر القرية ، وجرى

المعلم وراء الفقير ليحضر الحمار بنفسه . وتبعهم بعض الاهالى . كل منهم يريد تقديم الحمار للمحضر الذى يعتبرونه ضيفا على القرية كلها وان كانوا يكرهون مجيئه .. ولكنهم لم يجـــدوا الحمار فى مربطه ! .. وداروا حول الكوخ باحثين عنه فلم يروا غير دجاجات تنقر الارض بحثا عن طعامها ، وأعـواد من القش متناثرة هنا وهناك ، واقراص من المسكة مـكدسة على شـكل تلال هرمية ، وندت عن المعلم صيحة مكتومة ، اين الحمار ؟!.. وقال احدهم : لعله فك رباطه وجرى هنا أو هناك ؟.. وانتشروا فى ازقة القرية وحواريها ، ثم انطلقوا فى الحقول والمزارع ، ولكنهم لم يقفوا للحمار على أثر ! .. هل طار فى الهواء ؟ .. هل ابتلعته الارض ؟ .. هل سرقه اللصوص ؟ .. ياللعار الذى حل بالقرية! وانشغل الناس بالبحث عن الحمار بينما استبد اليأس بالمحضر ، فوقف صامتا كئيبا ، ومن خلال يأسه راح يفكر فى الرجوع الى بيته ، وفى الطريق الطويل الذى سيقطعه على قدميه ، وفى الخسارة التى حلت به ، واخذ يستعيد فى ذهنه شكل الحمـار وهيئته ، ومشيته وهو يركض به على الطريق ، وطفت الى رأسه صورة الحمار الذى وقع الحجز عليه ، فى بيت ابو اسماعيل ! .. فضرب جبهته بكفه وصرخ فى اعماقه :

«لقد حجزت على حمارى ؟!..» .. والتفت الى أبواسماعيل فرآه مسندا ظهره الى الحائط صامتا كأن شيئا لم يحـدث من حوله ، واكن تجاعيد وجهه كانت تتحدث ، كمـا كانت نظـراته الخابية تتألق بمعنى عميق ! .. فقد استطاع ان ينتصر ، أن يثبت قدرته رغم مرضه وفقره ، أن يحدث بلبلة فى عقول الناس الذين لم يعيروه التفاتا سوى أن يضحكوا منه ! ..

ها هو الآن فى اســتطاعته أن يضحك من قلبه ، ولكنه مع ذلك لم يفعل ! .. كانت ورطة المحضر تؤرقه !، وصـــاح الموظف المسكين فى توسل :

ـ حمارى يابو اسماعيل ؟!..

ـ لقد حجزت على حمارك !.. ولاشأن لى بذلك ، الأمـر الآن فى يد المعلم عباس !.

وتعجب صاحب الحمار !.. انه يتحدث بمنتهى البساطة ، وكأن المحضر المسكين ، لم يخسر حماره فى معركة لا حمار له فيها ولا جمل ! .. لقد صار الحمار ملكا لابو اسماعيل بمقتضى الأوراق الرسمية التى كتبها المحضر بخط يده ! كيف التخلص من هـذه الورطـة ؟ .. ماذنبك أيهـــا الموظف المسكين ؟!. حتى تخسر

حمارك ! .. فليذهب الدائن والمدين الى جهنم ، أما حمارك فلا ينبغى ان تخسره !..

دارت هذه الخواطر فى راس المحضر فعاد يتوسل :

ـ لماذا فعلت هذا يابو اسماعيل ؟!..

وبنفس النبرات المتقطعة اجاب السيد :

ـ لأثبت لكم اننى لااملك شيئا !..

وتجمع الناس ثانية ، وراحوا يبحثون عن حل لمشكلة الحمار ، ورأى بعضهم أن يتنازل المعلم عباس عن الحجز !..ولكن المعلم راى فى ذلك اهانة له حيث يكون قد انهزم امام خصمه !.. وطالب فى نفس الوقت ان يأخذوا على يد ابو اسماعيل ، الذى يعد سارقا ! .. ورأى آخرون أن يدفع صاحب الحمار المبلغ المطلوب ليخلص حماره وبعد ذلك يجمعونه له من اهل البلد ؟! ولكن المحضر لم يكن يملك هذا المبلغ .. وحينئذ قال الحاج على رضوان : « سوف اقدمها خدمة لجناب المحضر .. لعله ينفعنا فى المستقبل !» ثم اخرج حافظة نقوده ودفع المبلغ .. وانصرف الناس الى شئونهم ، وارتمى ابو اسماعيل فى بيته يعانى آلامه المبرحة ، ولكن حكاية الحمار جرت على كل لسان ..

تحدث عنها النساء فى بيوتهن ، وحكاها الرجال فى سمرهم وتفكهوا بها فى اجتماعاتهم ، وعندما تجمعوا فى قهوتهم ذات مساء ولم يجدوا من يسليهم بنكتة جديدة ، تذكروا ابو اسماعيل ، فقال احدهم : :

ـ انت ياحاج رضوان ؟. لقد كان ابو اسماعيل يعلف مواشيك ويسقيها ! لماذا لاتساعده ؟!..

وقال آخر :

ـ وانت ياحاج على ؟.. لقد انكسر ظهره وهو يعمل فى ارضك ؟!..

وتساءل ثالث :

ـ ما الذى كان يحدث لو ان المعلم عباس ابو الحمد تنازل له عن هذا المبلغ ؟ التافه ؟!..

وبدا عليهم جميعا الاهتمام بأمر ابو اسماعيل .. فتبرع الحاج على ابراهيم بعلاجه فى المدينة على حسابه الخاص .. وتنازل له الحاج رضوان عن بقرة حلوب ، وذهب جمع من الفلاحين الى بيت ابو اسماعيل يبشرونه بقدوم الفرج ، ولكنهم عندما وصلوا هناك وجدوه ميتا وامراته بجواره تبكيه بحرقة ، عندئذ تمتموا فى تحسر : لقد كان رجلا ولا كل الرجال .